محمد كرد علي و"المعاصرون"

للأستاذ عيسى الناعوري

"المعاصرون": كتاب للرئيس محمد كرد علي، مؤسس المجمع العلمي في دمشق (مجمع اللغة العربية الآن)، صدر في منشورات المجمع الدمشقي عام ١٩٨٠، وعلق عليه وأشرف على طبعه الأستاذ محمد المصري. ويقع الكتاب في ٥٤٠ صفحة من القطع الكبير، منها ٤٨٠ صفحة للحديث عن الأعلام، من العرب والمستشرقين، الذين عرفهم المؤلف واتصل بهم، والصفحات الباقية كلها للفهارس والمراجع. وقد صُدّر الكتاب بكلمتين تمهيديتين: الأولى لرئيس المجمع الدكتور حسني سبح، والثانية للأستاذ محمد المصري، المشرف على الطباعة والتحقيق.

من مقدّمة الدكتور حسني سبح نعرف أن المجمع، حينما احتفل سنة ١٩٧٦م بمرور مئة سنة على ميلاد مؤسسه الأستاذ الرئيس محمد كرد علي، كان يودّ "لو ظفر ببعض ما لم يُنشر من آثار ليقدمه إلى جمهور العلماء والباحثين في تلك المناسبة"... وبعد الاحتفال قدّم المهندس طريف كرد علي ظرفاً يحتوي على أوراق من أوراق والده، وعليه عنوان "المعاصرون"، ترجم فيه المرحوم محمد كرد علي "طائفة ممّن اتصلت أسبابه بأسبابهم من علماء البلاد العربية وأدبائها، ومن المستشرقين... وقد كان من هذه التراجم ما نشره الأستاذ في بعض الصحف والمجلات، ومنها ما طبع بالآلة الكاتبة، وأكثر مسوّدات

بخطّه". فعمد المجمع إلى تكليف الأستاذ المصري النظر في هذه الأصول وإعدادها للطبع.

ومن كلمة الأستاذ المصري نعلم أنّه قام بعمل المحقّق: من نَسْخ للكتاب، وتصحيح لبعض ما سقط منه من ألفاظ أو عبارات، وتعريف لبعض الأعلام والكتب الواردة فيه، وشرح، وإضافة هوامش حسبما يقتضيه المقام، وشكل ما يجب شكله من الحروف والكلمات، ووضع الفهارس، وما إلى ذلك ممّا يقتضيه تحقيق الكتب. وقد أضاف إلى ذلك أنه رتّب ورود الأعلام حسب الحروف الهجائية. وبهذا جاء اسم إبراهيم الحوراني الأول في الترتيب، ويليه إبراهيم اليازجي، فأحمد الإسكندري، فأحمد تيمور، وهكذا، وكانت الأسماء الأخيرة هي أسماء: يعقوب صروف، ويوجين غريفّيني، ويوسف هوروفيتز؛ والاسمان الأخيران لاثنين من المستشرقين الغربيين.

ويشمل الكتاب على ترجمات لسبعة وأربعين شخصاً من أعلام العرب والمستشرقين الذين عرفهم المؤلف، وكتب عنهم عن معرفة شخصية: العرب منهم سبعة وثلاثون شخصاً، والمستشرقون عشرة فقط، بعضهم- لا كُلّهم- من أصحاب الأسماء المعروفة جيّداً في العالم العربي ومن هؤلاء: كرنيليوس فانديك (أميركي)، اجناس غولدسيهر (مجري) وكارلو نللينو، وليون كائيتاني (إيطاليان). أما العرب فمعروفون جميعهم، ومن أشهرهم الشعراء: أحمد شوقي، وحافظ إبراهيم، والبارودي، وخليل مطران، وإسماعيل صبري، والعلماء: أحمد زكي (شيخ العروبة)، وأحمد تيمور، ويعقوب صرّوف (صاحب مجلة المقتطف)، وإبراهيم اليازجي، والأب انستاس الكرملي، وغيرهم. والواقع أنهم جميعاً من ذوي العلم والفضل والأدب: العرب منهم والمستشرقين على السواء، وقد استطاع محمد كرد علي أن يبرز فضل كل منهم، في كتابه هذا، دون تحيز ولا تحيّف.

بعض فصول الكتاب واضح جدّاً أنه كُتبِ لينشر في مجلّة أو صحيفة، وبعضها تعريفات قصيرة ذات صفحتين أو ثلاث صفحات فقط. وحين نطالع ما كتبه عن أحمد شوقي، والبارودي، وأحمد زكي، وإسماعيل صبري، وأحمد تيمور، ومحمود شكري الألوسي، مثلاً، نحسّ بأن فيه دراسة وافية للنشر. ومثل ذلك ما كتبه عن كرنيليوس فان دايك، من المستشرقين. وهذا يدلّ على مدى صلة المؤلف بالأشخاص، ومدى تقديره لفضلهم، واطّلاعه على إنتاجهم.

والمؤلف لا يكتب الحسنات فقط، فليس في الدنيا إنسان كامل، ولكنه يشير في كثير من الأماكن إلى ما قد يكون له من مآخذ، فإذا كان لديه مجال للتبرير أو للدفاع عنها، برّرها ودافع عنها، وإلّا عرضها وأبدى أسفه لها.

وأنت تشعر بأنه حين يتحدّث عن عالم مثل المستشرق كرنيليوس فانديك، فإنما يتحدث عنه بإعجاب، وتقدير لفضله وعلمه ونزاهته وإخلاصه، وحبّه للعرب ولغتهم، إلى حد أنه يستقيل من الجامعة الأمريكية حين يقرّر رؤساؤها أن يجعلوا التدريس فيها بالإنكليزية بدلاً من العربية.

يقول المؤلف في الصفحة ٣١٢-٣١٣: "لما أنشئت الجامعة الأمريكية في بيروت سنة ١٨٦٦م، عهد إليه تدريس علم الفلك والظواهر الجوية، والباثولوجيا، وشرع يترجم إلى العربية ما يلزم الجامعة الجديدة من كتب الطب والعلوم باللغة العربية. وما برح على ذلك حتى بدا لرؤساء الجامعة أن يجعلوا اللغة اللإنجليزية لغة التعليم بدلاً من العربية، فاستقال هو وزميله الدكتور ورتبات احتجاجاً على من رجّحوا الإنكليزية على العربية، قائلين إنهما ما نزلا أرض الشام إلا ليخدما العرب، بتدريس العلوم بلغتهم".

ويذكر المؤلف أن فانديك قد كتب باللغة العربية عشرين كتاباً في العلوم والفنون، وأنه أنشأ مدارس كثيرة في لبنان، وأنشأ المرصد الفلكي في الجامعة من

ماله الخاص، وكان العامل الأكبر في إنشاء مستشفى مار جرجس، في بيروت (ص٣١٣-٣١٤).

ويضيف قائلاً: "وعَرَف الإحسانَ لكلّ إنسان، فأحبّته جميع الطوائف... فَفَضْلُ فانديك على ديارنا وأهلها يُذكر بالحمد على الدهر... ولعلّنا لا نعدو الصواب إذا حكمنا على فانديك بأن دعوته الدينيّة ذابت في شخصه، وغلبت عليها النزعة العلمية، وبها ظهر في هذه الديار ظهوراً رائعاً.

وهو يشهد بأن فانديك قد "أحبّ العرب، فقلّدهم في لباسهم وطعامهم وفي كل جميل من مظاهرهم، وعلّم الناس بالقدوة الصالحة".

لقد عرف محمد كرد علي فضل كرنيليوس فانديك، الأميركي الجنسية والهولندي الأصل، وقدر علمه وخلقه، فلم يجد في سيرته إلّا كلّ ما يستحق الحمد والثناء، فشهد له شهادة حقّ، وأُعجب به إعجاب العالِم بالعالِم، ورَجُل الفضل برَجُل الفضل.

ولم يكن كذلك كلّ ما كتبه عن جميع المستشرقين الذين عرفهم، والذين تحدث عنهم في كتابه "المعاصرون". لقد قدر لهم علمهم وفضلهم، فإذا وجد لأي منهم عيباً وتقصيراً، أو إساءة إلى العرب والإسلام، لم يكن يكتمه. فهو حين يتحدّث عن المستشرق الفرنسي كليمنت هوار، يقول في الصفحة ٣٠٨-٣٠٩:

"ولقد رأينا الفرنسين- على شدّة ذكاء علمائهم - يخوضون أبحاثاً لا تظهر عليها العناية، كما تظهر عناية الألمان والإنكليز والهولنديين في ما أحيوا من آثار العرب. ولهذا وقعت للسيد هوار، في كتاب "البدء والتاريخ"، أغلاط كثيرة، ما كان ليسقط فيها لو تروّى في نشره، ولو رجع إلى عالم عربي لصحّح معظم هفواته، وصدر الكتاب سليماً من العيوب في الجملة".

وقبل ذلك قال فيه، في الصفحة ٣٠٨ عينها: "ونشر في "معلمه الإسلام" تراجم بعض علماء المسلمين الأقدمين بأسلوب مقتضب، لا نسبة بينه وبين ما نشره غيره من المحققين المستعربين في تلك المعلمة، وكانت تراجمه كالفهارس الموجزة، لا تراجم رجال تملأ حياتهم صفحات. وما ترجمه لهم يتيسّر لأي طالب أن يكتب أمتع منه".

وفي تقدير محمد كرد علي لفضل ذوي الفضل، نراه أحياناً يُنحي باللوم على الشرقيين، حين يقارن بينهم وبين بعض المستشرقين. ففي ختام حديثه عن المستشرق المجري اجناس غولدسيهر يقول في الصفحة (١٣٦):

"... رأيت طريقته طريقة العلماء يعشقون الحقائق ولا يعبأون بما عداها. ولا عجب أن أصبح غولدسيهر مرجع علماء المشرقيّات الإسلامية في ديار الغرب لعهده.. إن الدراسات التي وجّهت إليها همّة غولدسيهر ممّا يعزّ مثله لعالم شرقي: ذلك لأن الشرقيّ بعيد عن الإتقان، يصاب بالملل، ولا سيّما يوم تعرض له مشاكل تحتاج إلى أناة طويلة وطول تفكير".

أما في بيان الإشارة إلى المساوئ والعيوب في الأعمال العلمية، دون تمييز بين عربي ومستشرق، فحين يتحدث المؤلف عن الأب لويس شيخو، مثلاً، فإنّه يقول رأيه صريحاً في آثاره العلمية والأدبية، وما كانت تصدر عنه من هوى ظاهر. ففي الصفحة ٣١٩ يقول:

"... وراعى في كتبه نظام رهبانيّته، فجاءت كتاباته – إلّا قليلاً– أشبه بالدعايات المذهبية منها بكتب علمية مشتركة، تنشق ريح دينه في كلّ ما كَتَب ونَشَر. ولو خَلَت بعض أسفاره – وبخاصة "شعراء النصرانية قبل الإسلام وبعده"، و"الآداب العربية في القرن التاسع عشر وبعده" من هذه النزعة لكانت في الغاية من جودة التأليف، لكثرة مادّته وحسن تنسيقه".

ويضيف إلى ذلك في الصفحة عينها: "لم يُرْزَق الفقيد ذوقاً عالياً في الأدب العربي، وظلّت كتابته إلى أخريات أيامه كما كانت لأول عهده: نَمطاً واحداً، لا تناسب مقدرته على التأليف، ووقوفه على أدب العرب والإفرنج وبعض علوم العصر... وغريب ممن عاش بين كتب الفصحاء من العرب، أن يظلّ بعد درس خمسين سنة ضعيفاً في الإنشاء على كثرة ما قرأ وكتب".

إلى جانب هذا الرأي الصريح في نقد الأب لويس شيخو، لم يسمح للمؤلف خلقه إلا أن يشيد بما له من جهود مشكورة في حقول التأليف والتصنيف، وبفضل مجلّته "المشرق" على النهضة الفكرية العربية.

إن إعجاب المؤلف – وقد يبلغ أبعد الحدود– ببعض العلماء العرب وبعض المستشرقين، لا يمنعه من أن يقول الحق في أخطائهم. ومن ذلك مثلاً أنه أعرب عن إعجابه الشديد بالمستشرق الفرنسي ادوار مونتيه، إلى حدّ أنه زاره في جنيف – كما يقول في الصفحة ١٠٩ – وشكره "على حسن ظنه بالإسلام. وقال إن من كتبوا مثله، دون تحزّب، من الأوروبيين قلائل جداً". ثم لا يلبث أن يقول بعد ذلك، في الصفحة ١١٠:

"... حتى إذا تكلّم عن المسلمين في شمالي إفريقيا، وفي غيرها من ديار الإسلام التي استعمرها الإنكليز والهولنديون وغيرهم، تكلّم بلسان المستعمرين، وأشار على المسلمين أن يخضعوا لمن استعمرهم، وقال: إن فرنسا ساعية في تعليم المراكشيين والجزائريين والتونسيين، على النحو الذي قرأه في ما كتبه كتّاب الاستعمار عنهم... وكان حكمه على الظواهر بما لا يليق بعالم من عياره".

مثل هذه الأحكام يحترمها القارئ، لأنها تصدر عن عالم يعرف أقدار العلماء، ويدرك مواطن الفضل والخطأ في أعمالهم. وهي لا تصدر عن حقد، أو

تعصّب، أو عن رغبة في الإساءة، بل عن أسف وشعور بالألم، لأن الذين صدرت عنهم أناس كان يجب أن يكونوا أرفع وأجلّ قدراً.

وحين يكتب محمد كرد علي عن كبار شعراء عصره، تحسّ بأنه يكتب دراسات للنشر في الصحف، فهو يمدّ الحديث ويطيله، ويكثر من الاستشهاد بالشعر في نماذج متلاحقة كثيرة يكاد لا يفصل بينها إلا: "وقال" أو "وقال أيضاً"، حتى إذا شبع من إيراد النماذج، مضى يعلّق عليها.

كذلك فعل مع أحمد شوقي، والبارودي، وإسماعيل صبري، وحافظ إبراهيم، وخليل مطران، ومعروف الرصافي، وغيرهم. وفي دراسته لكلّ منهم كان عادلاً في أحكامه، وصريحاً في قول كلمة الحق. من ذلك مثلاً قوله عن أحمد شوقي في الصفحة (٦٢):

"وغريب من شاعر هو أسير خياله وإلهامه في ليله ونهاره، أن يخضع مختاراً لهذه القيود الثقيلة، ويشرب قلبه حبّ المظاهر والرتب والأوسمة".

وأيضاً: "إن اتصال الشاعر بالخديوي كان منه الهبات والعطايا، ونفوذه في القصر دعا أرباب الغرام بالمراتب والرتب والأوسمة أن يوسّطوه في نيل ما تطمح نفوسهم من الرغائب. فجمع من ذلك ثروة لم يحرزها شاعر في عصرنا وفي كثير من العصور الماضية، ونَعِم بالأطايب في الحياة، وعاش عيش العظماء وأرباب القصور، واستطاع أن يبذل ما يسترضي به من يخدمه...".

وحين يتحدّث عن نثر شوقي (ص٦٣) يقول: "أراد شوقي منذ صباه أن يعاني النثر كما عانى الشعر، وكتب بعض الروايات في آخر أمره، ووضع كتاباً أسماه "أسواق الذهب"، فما جوّد في الأول ولا في الآخر، لأن الكتابة لم تسلس له قيادها كما أسلس له الشعر قيادة".

إن النقد الصحيح يتطلب دقة الأحكام، وعدلها، وصراحتها، وجرأتها، وهذا هو النقد الذي يملي على محمد كرد علي أحكامه في كتابه "المعاصرون". فإذا كان قد رأى بعض النقص لدى شوقي، في الحياة وفي الأدب، فسجّل فيه أحكامه العادلة، فإنه لم يفعل مثل ذلك في ما كتبه عن أحمد تيمور، مثلاً، لا في حياة تيمور، ولا في خلقه، ولا في علمه وأدبه. وفي أدب تيمور وعلمه وخلقه يقول محمد كرد علي (ص٤٦):

"كان إماماً مدققاً في علوم اللغة والبيان، كاتباً نقيّ العبارة، يكتب على أجمل ما يكتب نبغاء المؤلفين: لا تعمّل ولا تصنّع... وغلب عليه التواضع، وتملّكه الحياء...".

وفي الصفحة (٤٥) يقول: "لا أعرف في بلاد العرب رجلاً جمع مثل هذه الصفات، وأحبّ العلم هذه المحبة الشديدة، وخدمه في نطاق طاقته هذه الخدمة. وهو في أصله من طبقة النبلاء وأرباب الثراء، فما أبطرته النعمة، ولا استهواه الغنى والجاه، وراح في كل أدوار حياته يبتعد عن الشهرة...".

ومثل هذا الإعجاب بأحمد تيمور، كان إعجاب المؤلف بإبراهيم اليازجي، وأحكامه في علمه وخلقه وفضله. وفي أحد المجالات يدافع عنه ويبرئّه ممّا اتهمه فيه بعض الناس ممّن قصدوا الإساءة إليه. فقد جاء في آخر الصفحة (١٥) وأول الصفحة (١٦) ما يلي:

"أولع الشيخ (إبراهيم اليازجي) ببلاغة القرآن. حدّثني تلميذه صديقي خليل مطران الشاعر أنه كثيراً ما كان يقول لتلاميذه إذا تصدّوا للكتابة ونشر المقالات، أن يستشهدوا بآيات القرآن ليكون بها رونق لما يكتبون، أو ما هذا معناه. فمن كان هذا اعتقاده، لا يُعْقَل أن يطعن ببلاغة الكتاب العزيز وفصاحته، على ما

اتهمه بذلك بعض الطوائف من أنه عارض القرآن، وحطّ من شأنه في رسالة له نَحَلَتْه إياها، وما هي إلّا من أقلام بعض دعاتهم".

وقال في علمه وفضله، ص (٢٩): "أفنى أيامه في التحقيق والتدقيق: عقل عالم، وحكمة حكيم، وعين فنّان، وذوق شاعر. كان الشيخ مأخوذاً بعلمه، مخلصاً له. لم يتعلّق من الحياة بغير المعنويات.".

وإذا كان محمد كرد علي قد عظّم صديقه أحمد زكي باشا (شيخ العروبة) وأثنى على علمه ثناء لا مزيد عليه، فقال عنه في الصفحة (٤٩): "ليس على أديم الأرض رجل عرف المدنيّة العربية والإسلامية كما عرفها أحمد زكي: بذّ في هذا الفرع المسلمين وغير المسلمين"؛ فإنه مع ذلك يعيب عليه أنه كان "يريد الاستئثار بكل شيء، وأن يخوض عباب كل مبحث" (ص٥٣). وروى عنه حادثة أراد فيها أن يستأثر بمبلغ كبير من المال وضعته وزارة المعارف المصرية لمشروع إحياء الآداب العربية، وطَبْعِ سبعة وعشرين كتاباً من أهم كتب التاريخ والأدب والعلوم القديمة. ولكنه "أبطأ في إخراج العمل، فاستُرْجِع المبلغ الذي كان قد خُصِّص لهذه الغاية". وهكذا خسر أحمد زكي المبلغ؛ ولم يسمح بأن يستفيد منه سواه ليقوموا بالعمل، ولم يسمح بخروج المشروع إلى التنفيذ؛ وكل ذلك بسبب جشعه.

. . . . .

ولست أستطيع أن أمضي مع الكتاب، فأتحدّث عمّا كتبه المؤلف حول السبعة والأربعين من الأعلام جميعهم، وإنما أردت أن أقدم نماذج من دراساته لهؤلاء الأعلام ومن أحكامه العادلة، المتزنة والجريئة في الوقت نفسه، ومن تقديره لذوي الفضل والعلم.

ومن حق محمد كرد علي أن يكون كتابه هذا بين المراجع المهمة عن هؤلاء الأعلام، ومن حق مجمع اللغة العربية في دمشق أن نزجي له الشكر الخالص على نشره لهذا الأثر الجليل لمؤسسه العظيم الأستاذ الرئيس محمد كرد علي.